قصة آدم وإبليس

تكلم الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله ورضي عنه على قصة آدم وإبليس فقـــال :

بسم الله الرحمن الرحيم . عن أبي موسى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم(١) (إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض ، فجاء بنو آدم على قدر الأرض ، جاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك ، والحزن والخبيث والطيب) وقوله تعالى (ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون)(٢) .

قال ابن عباس في رواية الوالبي : الصلصال : الطين اليابس ، وفي رواية الذي إذا نقر صوّت . والحمأ : الطين الأسود المتغير اللون ،والمسنون: المتغير الرائحة ، يقـــال : سنى الماء فهو مسنون إذا تغير .

---

(١) رواه أحمد في مسنده عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ، وقد أخرجه أيضاً أبو داود (كتاب السنة) والترمذي (كتاب التفسير) ، كما أخرجه الحاكم والبيهقي .

(٢) سورة الحجر ٢٦ .

وقال سيبويه :(١) المسنون المصوَّر على صـــورة ومثال . وقوله تعـــالى : (ولقد خلقناكم ثم صورناكم)(٢) قال ابن القيم(٣) : قال ابن عباس : (ولقد خلقناكم) يعني : آدم ، (ثم صورناكم) لذريته ، ومثال هذا ما قاله مجاهد :(٤) (خلقناكم) يعني آدم (وصورناكم) يعني في ظهر آدم ، وفي الحديث المعروف(٥) أنه أخرجهم من ظهر آدم في صورة الذر ، ونظيره (فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة)(٦) والله سبحانه يخاطب

---

(١) هو عمرو بن عثمان أبو بشر ، إمام النحاة وأول من بسط علم النحو ، صاحب كتاب سيبويه ، ولد سنة ١٤٨ وتوفي سنة ١٨٠ هـ ، راجع : وفيات الأعيان ١ — ٣٨٥ وراجع (لسان العرب) في معنى مسنون .

(٢) سورة الأعراف : الآية : ١١ .

(٣) هو أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر الدمشقي ، العالم الثبت صاحب المؤلفات الكثيرة الشهيرة ، منها (أعلام الموقعين) و(الطرق الحكمية) و(زاد المعاد) و(مدارج السالكين) و(شفاء العليل) و(إغاثة اللهفان) ... وغيرها ، ولد عام ٦٩١ وتوفي عام ٧٥١ هـ .

(٤) هو أبو الحجاج مجاهد بن جبر المكي ، مولى بني مخزوم ، تابعي مفسر ، أخذ التفسير عن ابن عباس .

ولد عام ٢١ وتوفي عام ١٠٤ هـ .

راجع مثلا : سير النبلاء جـ ٤ .

(٥) راجع في كتب التفسير الموسعة ما ذكر في تفسير قوله تعالى : (وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ قالوا : بلى شهدنا....) سورة الأعراف ١٧٢ .

(٦) سورة الحج : الآية ٥ .

الموجودين والمراد آباؤهم كقوله : (وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة)(١) وغير ذلك من الآيات ، وقد يستطرد سبحانه من الشخص إلى نوع كقوله : (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين)(٢) إلى آخره ، فالمخلوق من سلالة آدم ، ومن نطفة ذريته ، وقيل إن : (صورناكم) لآدم أيضاً . وقوله تعالى : (فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين)(٣) فأضاف النفخ إلى نفسه،وفي الصحيح – في حديث الشفاعة – « فيقولون أنت آدم خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه ، وأسجد لك ملائكته ، وعلمك أسماء كل شيء» (٤) فذكروا له أربع خصائص فالمنفوخ منه الروح المضافة إلى الله إضافة تخصيص وتشريف ، والله هو الذي نفخ في طينته من تلك الروح ؛ وهذا الذي دل عليه النص .

وأما كون النفخة مباشرة منه سبحانه كما خلقه بيده أو أنها بأمره كقوله في مريم : (فنفخنا فيها من روحنا)(٥) مع قوله : (فأرسلنا إليها روحنا)(٦)

---

(١) سورة البقرة : الآية ٥٥ .

(٢) سورة المؤمنون : الآية ١٣ .

(٣) سورة الحجر : الآية ٢٩ وسورة ص : الآية ٧٢ .

(٤) الحديث رواه البخاري (كتاب التوحيد) ومسلم (كتاب القدر) والترمذي (كتاب القيامة) وابن ماجه (كتاب الزهد) ، كما رواه أحمد في مسنده .

(٥) سورة الأنبياء : الآية ٩١ .

(٦) سورة مريم : الآية ١٧ .

إلى آخره فهذا يحتاج إلى دليل ، فإنه أضاف النفخ إلى مريم لكونه بأمره ؛ وإلى الملك لكونه المباشر للنفخ .

وفي القصة فوائد عظيمة ، وعبر لمن اعتبر بها منها أن خلق آدم من تراب من أبين الأدلة على المعاد ، كما استدل عليه سبحانه في غير موضع ، وعلى قدرته سبحانه وعظمته ورحمته وعقوبته ؛ وإنعامه وكرمه وغير ذلك من صـــفاته .

ومنها أنها من أدلة الرسل عامة ، ومن أدلة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم خاصة ، ومنها الدلالة على الملائكة وعلى بعض صفاتهم ، ومنها الدلالة على القدر خيره وشره فقد اشتملت على أصول الإيمان الستة في حديث(١) جبريل ، ومنها وهي أعظمها أنها تفيد الخوف العظيم الدائم في القلب ؛ وأن المؤمن لا يأمن حتى تأتيه الملائكة عند الموت تبشره ، وذلك من قصة إبليس وما كان فيه أولا من العبادة والطاعة ، ففي ذلك شيء من تأويل قوله صـــلى الله عليه وسلم : « إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع »(٢) إلى آخره .

ومنها أن لا يأمن عاقبة الذنب ، ولو كان قبله طاعات كثيرة ، وهو ذنب واحد فكيف إذا كانت الذنوب بعدد رمل عالج(٣) ، ومن هذا قول بعض السلف : نضحك ولعل الله اطلع على بعض أعمالنا ، فقال : اذهبوا

---

(١) رواه البخاري (إيمان) ومسلم (إيمان) والترمذي (إيمان) وأبو داود (سنة) والنسائي (مواقيت) . كما رواه ابن ماجة وأحمد .

(٢) رواه أصحاب الكتب الستة عن ابن مسعود .

(٣) رملة بالبادية بين فيد والقُريّات (راجع : معجم البلدان) .

فلا أقبل منكم عملا ـ أو كلاًما هذا معناه ـ وأبلغ منه قوله صلى الله عليه وسلم ، : « إن العبد ليتكلم(١) بالكلمة من سخط الله لا يلقى لها بالا ما يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله له بها سخطه إلى يوم يلقاه » قال علقمة(٢) : كم من كلام منعنيه حديث بلال ، يعني هذا .

ومنها أنها تخلع من القلب داء العجب الذي هو أشد من الكبائر .

ومنها وهي من أعظمها أنها تعرف المؤمن شيئاً من كبرياء الله وعظمته وجبروته ؛ ولا يُدل عليه ولو بلغ في الطاعة ما بلغ ، وقد وقع في هذه الورطة كثير من العباد فمستقل ومستكثر ؛ ومنها التحذير من معارضة القدر بالرأي لقوله : (أرأيتك هذا الذي كرمت على) وهذه بلية عظيمة لا لا يتخلص منها إلا من عصمه الله لكل مقل ومكثر .

ومنها وهي من أعظمها تأدب المؤمن من معارضة أمر الله ورسوله بالرأي كما استدل بها السلف على هذا الأمر ، ولا يتخلص من هذا إلا من سبقت له من الله الحسنى .

ومنها عدم الاحتجاج بالقدر عند المعصية لقوله : (رب بما أغويتني) بل يقول كقول أبيه : (ربنا ظلمنا أنفسنا) الآية .

ومنها معرفة قدر المتكبر عند الله خصوصاً مع قوله : (اخرج منها

---

(١) رواه البخاري (رقاق) والترمذي (زهد) وابن ماجه (فتن) ، كما رواه الموطأ ومسند أحمد .

(٢) هو علقمة بن قيس النخعي الهمداني ، التابعي فقيه أهل العراق ، كان يشبه بابن مسعود ، روى الحديث عن الصحابة (ت ٦٢ هـ) .

فما يكون لك أن تتكبر فيها) ومنها الفخر بالأصل ، وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم التشديد(١) في ذلك ؛ والفخر منهي عنه مطلقاً ، ولوكان بحق فكيف إذا كان بباطل ؟

ومنها الشهادة لما كان عليه السلف أن البدعة أكبر من الكبائر ، لأن معصية اللعين كانت بسبب الشبهة ، ومعصية آدم بسبب الشهوة .

ومنها عدم الاغترار بالعلم ؛ فإن اللعين كان من أعلم الخلق فكان من أمره ما كان .

ومنها عدم الاغترار بالرتبة والمنزلة ؛ فإنه كان له منزلة رفيعة ؛ وكذلك بلعام(٢) وغيره ممن له علم ورتبة ثم سلب ذلك .

ومنها معرفة العداوة التي بين آدم وذريته ، وبين إبليس وذريته ، وأن هذا سببها لما طرد عدو الله ، ولعن بسبب آدم لما لم يخضع ، وهذه المعرفة مما يغرس في القلب محبة الرب جل جلاله ، ويدعوه إلى طاعته وإلى شدة مخالفة الشـــيطان ، لأنه سبحانه ما طرد إبليس ولعنه ، وجعله بهذه المنزلة الوضيعة بعد تلك المنزلة الرفيعة إلا لأنه لم يخضع بالسجود لأبينا آدم ، فليس

---

(١) ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم التشديد في النهي عن الفخر بالآباء ، مثل (إن الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية وفخرها بالآباء .) وفيه — في بعض رواياته — (لينتهن أقوام يفتخرون بآبائهم ....) وقد رواه عن أبي هريرة أبو داود والترمذي والبيهقي . وفي معناه أحاديث متعـــددة .

(٢) هو بلعام بن باعوراء ، راجع تفسير قوله تعالى : (واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا ...) سورة الأعراف ١٧٥ في كتب التفسير الموسعة .

من الإنصاف والعدل موالاته ، وعصيان المنعم جل جلاله كما ذكر هذه الفائدة بقوله : (افتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا)(١) .

ومنها معرفة شدة عداوة عدو الله لنا ، وحرصه على إغوائنا بكل طريق ، فيعتد المؤمن لهذا الحرب عدته ، ويعلم قوة عدوه وضعفه عن محاربته إلا بمعونة الله ، كما قال قتادة(٢) : إن عدواً يرانا هو وقبيله من حيث لا نراهم إنه لشديد المؤونة إلا من عصمه الله ، وقد ذكر الله عداوته في القرآن في غير موضع ، وأمرنا باتخاذه عدواً .

ومنها وهي من أعظمها معرفة الطرق التي يأتينا منها عدو الله ، كما ذكر الله تعالى عنه في القصة أنه قال : (لأقعدن لهم صراطك المستقيم . ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم) وإنما تعرف عظمة هذه الفائدة بمعرفة شيء من معاني هذا الكلام . قال جمهور المفسرين : انتصب صراط بحذف « على » التقدير لأقعدن لهم على صراطك قال ابن القيم : والظاهر أن الفعل مضمر فإن القاعد على الشيء ملازم له ، فكأنه قال : لألزمنه ولأرصدنه ونحو ذلك ، قال ابن عباس : دينك الواضح (ومن بين أيديهم) يعني الدنيا والآخرة (ومن خلفهم) يعني الآخرة والدنيا (وعن

---

(١) سورة الكهف : الآية ٥٠ .

(٢) هو أبو الخطاب الضرير الأكمة قتادة بن دعامة السدوسي ، مفسر الكتاب المحدث ، كان آية في الحفظ ، إماماً في النسب ، رأساً في العربية واللغة وأيام العرب . توفي عام ١١٧ هـ ، راجع مثلا : المعارف ص ٦٠ وشذرات الذهب ١-١٥٣ .

أيمانهم) قال ابن عباس : أشبِّه عليهم أمر دينهم ، وعنه أيضاً من قبل الحسنات ، وقوله : (وعن شمائلهم) الباطل أرغبهم فيه ، قال الحسن(١) : (السيئات يحثهم عليها ويزينها في أعينهم) .

قال ابن قتادة : أتاك الشيطان يا ابن آدم من كل وجه إلا أنه لم يأتك من فوقك ، ولم يستطع أن يحول بينك وبين رحمة الله ؛ وهو يوافق قول من ذكر هذه الأوجه للمبالغة في التوكيد أي أتصرف لهم في الإضلال من جميع جهاتهم ؛ ولا يناقض ما ذكر السلف ، فإن ذلك على جهة التمثيل ، فالسبل التي للإنسان أربعة فقط ؛ فإنه تارة يأخذ على جهة شماله ، وتارة على يمينه ، وتارة أمامه ، وتارة يرجع خلفه ، فأي سبيل من هذه سلكها وجد الشيطان عليها راصداً له ، فإن سلكها في طاعة ثبطه ؛ وإن سلكها بالمعصية حداه ، وأنا أمثل لك مثالا واحداً لما ذكر السلف ، وهو أن العدو الذيمن بني آدم إذا أراد أن يمكر بك لم يستطع أن يمكر إلا في بعض الأشياء ، وهي الأشياء الغامضة ، والأشياء التي ليست بعالية ، فلو أراد أن يمكر بك في أمر واضح بيِّن مثل التردي من جبل أو بئر وأنت ترى ذلك لم يستطع ، خصوصاً إذا عرفت أنه قد مكر بك مرات متعددة ، ولو أراد ليمكر بك لتتزوج عجوزاً شوهاء وأنت تراها لم يستطع ذلك .

وأنت ترى اللعين أعاذنا الله منه يأتي الآدمي في أشياء واضحة بينة أنها مما حرم الله ورسوله فيحمله عليها حتى يفعله ؛ ويزينها في عينه حتى يفرح بها ، ويزعم أن فيها مصلحة ويذم من خالفه ؛ كما قال تعالى : (لا تحسبن

---

(١) هو أبو سعيد الحسن بن يسار ، إمام أهل البصرة في زمانه التابعي الورع (٢١ — ١١٠ هـ) .

الذين[1] يفرحون بما أتوا) الآية وقوله : (ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون)[2] وقوله : (ولقد علموا لمن[3] اشتراه ماله في الآخرة من خلاق) وهذا معنى قول من قال : (من بين أيديهم) من قبل الدنيا فإنهم يعرفونها وعيوبها ومجمعون على ذمها ، ثم مع هذا لأجلها قطعوا أرحامهم وسفكوا دماءهم ، وفعلوا ما فعلوا ، وهذا معنى قول مجاهد (من بين أيديهم) من حيث يبصرون ، فهو لم يقنع بإتيانه إياهم من الجهة التي يجهلون أنها معصية مثل ما فسر به مجاهد (من خلفهم) قال : من حيث لا يبصرون ، ولا من جهة الغيب كما قال فيها بعضهم ، الآخرة أشككهم فيها ، لم يقنع بذلك عدو الله حتى أتاهم في الأمور التي يعرفونها عياناً أنها النافعة وضدها الضار ، وفي الأمور التي يعرفون أنها سيئآت وضدها حسنات ، ومع هذا أطاعوه في ذلك إلا من شاء الله منهم كما قال تعالى : (ولقد صدّق عليهم إبليس ظنه فاتّبعوه إلا فريقاً من المؤمنين)[4] .

وقال تعالى حكاية عنه : (وقال لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً . ولأضلنهم ولأمنينهم[5] ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ولآمرنهم فليغيرن

---

(١) سورة آل عمران : الآية ١٨٨ .

(٢) سورة البقرة : ٤٢ .

(٣) سورة البقرة : ١٠٢ .

(٤) سورة سبأ : ٢٠ .

(٥) سورة النساء : ١١٨ — ١١٩ .

خلق الله) الآية . قال الضحاك(١) مفروضاً معلوماً ، وحقيقة الفرض التقدير ، والمعنى أن من اتبعه فهو نصيبه المفروض ، فالناس قسمان : نصيب الشيطان ومفروضه ، وحزب الله وأولياؤه . قوله : (ولأضلنهم) يعني عن الحق (ولأمنينهم) قال ابن عباس : تسويف التوبة وتأخيرها ، وقال الزجاج(٢) : أجمع لهم مع الإضلال أن أوهمهم أنهم ينالون مع ذلك حظهم من الآخرة وقوله : (ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام) البتك القطع وهو ههنا قطع آذان البحيرة وقوله : (ولآمرنهم فليغيرنّ خلق الله) قال ابن عباس : دين الله ، وقاله ابن المسيب(٣) والحسن وابراهيم(٤) وغيرهم ، ومعنى ذلك أن الله فطر عباده على الفطرة وهي الإسلام كما قال تعالى : (فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها)(٥) الآية ؛ وفي الصحيح (ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهوّدانه)(٦) الحديث ، فجمع صلى الله

---

(١) هو الضحاك بن مزاحم البلخي الخراساني ، كان مفسراً له كتاب في التفسير (ت ١٠٥ هـ) ، راجع مثلا : ميزان الاعتدال ١ — ٤٧١ .

(٢) هو إبراهيم بن السري عالم النحو واللغة البغدادي ، ولد عام ٢٤١ وتوفي عام ٣١١ هـ .

(٣) هو أبو محمد سعيد بن المسيب المخزومي القرشي ، سيد التابعين وأحد الفقهاء السبعة بالمدينة ، كان راوية لفقه عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

(٤) هو إبراهيم بن يزيد بن قيس ، أبو عمران النخعي ، كان فقيهاً من أكابر التابعين ، وفقيه أهل العراق في عصره (٤٦ — ٩٦ هـ) .

(٥) سورة الروم : الآية ٣٠ .

(٦) رواه البخاري ومسلم والطبراني في الكبير والبيهقي في السنن .

عليه وسلم بين الأمرين تغيير الفطرة بالتهويد وغيره ، وتغيير الخلقة بالجدع ، وهما اللذان أخبر إبليس أنه لا بد أن يغيرهما ، ثم قال تعـالى : (يعدهم ويمنّيهم) فوعْده ما يصل إلى قلب الإنسان نحو سيطول عمرك وتنال من الدنيا وتعلو ، والدنيا دول وستكون لك ويطول أمله ، ويعده الحسنى على شركه ومعاصيه ، ويمنيه الأماني الكاذبة على اختلاف وجوهها ، فالوعد في الخير ، والتمنية في الطلب والإرادة .

ومنها أن معرفة هذه القصة تزرع في قلب المؤمن حب الله تعالى الذي هو أعظم النعم على الإطلاق ، وذلك من صنعه سبحانه بالإنسان وتشريفه ؛ وتفضيله إياه على الملائكة ، وفعله بإبليس ما فعل لما أبى أن يسجد له ،وخلقه إياه بيده ونفخه فيه من روحه ؛ وإسكانه جنته ، وقد خاطب الله سبحانه بني اسرائيل الموجودين في زمن النبي صلى الله عليه وسلم بما فعل مع آبائهم ، وذكّرهم بذلك واسـتدعاهم به ، وذكّرهم أنه فعله بهم كقوله : (وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون)(١) وغير ذلك ، وذكر النعم التي هي أصل الشكر الذي هو الدين ، لأن شكرها مبني على معرفتها وذكرها ؛ فمعرفة النعم من الشكر بل هي أم الشكر كما في الحديث(٢) « من أسدي إليه معروف فذكره فقد شكره فإن كتم فقد كفره » هذا في الأشياء التي تصدر من بني آدم فكيف بنعم المنعم على الحقيقة والكمال؟

---

(١) سورة البقرة : الآية ٥٠ .

(٢) روى بمعناه عن ابن عباس ، ورواه أحمد في مسنده بمعناه عن عائشـة .

واجتمع الصحابة يوماً في دار يتذاكرون ما منّ الله عليهم به من بعثه محمد صلى الله عليه وسلم .

ومنها أن التأويل الفاسد في رد النصوص ليس عذراً لصاحبه ، كما أنه سبحانه لم يعذر إبليس في شبهته التي أبداها كما لم يعذر من خالف النصوص متأولا مخطئاً ، بل كان ذلك التأويل زيادة في كفره .

ومنها أن مثل هذا التأويل ليس على أهل الحق أن يناظروا صاحبه ، ويبينوا له الحق كما يفعلون مع المخطيء المتأول ، بل يبادر إلى عقوبته بالعقوبة التي يستحقها بقدر ذنبه ؛ وإلا أعرض عنه إن لم يقدر عليه ؛ كما كان السلف الصالح يفعلون هذا وهذا ، فإنه سبحانه لما أبدى له إبليس شبهته فعل به ما فعل ؛ ولما عتب على الملائكة في قيلهم أبدى لهم شيئاً من حكمته وتابوا ؛ وقد وقعت هذه الثلاث لرسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوته التي فتح الله فيها مكة ، فإنه لما أعطى المؤلفة قلوبهم ووجدت عليه الأنصار عاتبهم واعتذروا وقبل عذرهم ؛ وبين لهم شيئاً من الحكمة ، ولما قال له ذلك الرجل العابد (اعدل) قال له كلاماً غليظاً ؛ واستأذنه بعض الصحابة في قتله ولم ينكر عليه(١) ؛ لكن ترك قتله لعذر ذكره ، ولما فعل خالد بن الوليد ببني جذيمة ما فعل رد عليهم ما أخذ منهم ووداهم ، ولا نعلم أنه عاتب(٢) خالداً ولا منعه ذلك من تأميره على الناس .

---

(١) راجع : سيرة النبي صلى الله عليه وسلم لابن هشام ج ٤ ص ١٤٤ (تحقيق الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد) — طبع دار الفكر .

(٢) راجع : المرجع السابق ص ٥٥ وما بعدها ، ففيه تفصيل ذلك .

ومنها أن الشبهة إذا كانت واضحة البطلان لا عذر لصاحبها ، فإن الخوض معه في إبطالها تضييع للزمان وإتعاب للحيوان ، مع أن ذلك لا يردعه عن بدعته ، وكان السلف لا يخرجون مع أهل الباطل في ردّ باطلهم كما عليه المتأخرون ، بل يعاقبونهم إن قدروا وإلا أعرضوا عنهم . وقال أحمد لمن أراد أن يرد عليهم : اتق الله ولا تنصب نفسك لهذا ، فإن جاءك مسترشداً فأرشده . وهو سبحانه لما قال اللعين : (أنا خير منه) قال : (اخرج منها فإنك رجيم) ولما قالت الملائكة ما قالت : (قال إني أعلم ما لا تعلمون)[1] ثم بين لهم ما بين حتى أذعنوا .

ومنها معرفة قدر الإخلاص عند الله ، وحماية لأهله لقول اللعين : (إلا عبادك منهم المخلصين) فعرف عدو الله أنه لا سبيل له على أهل الإخلاص .

ومنها أن كشف العورة مستقر قبحه في الفطر والعقول لقوله : (فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوءاتهما) وقد سماه الله فاحشة .

ومنها أنه لا ينبغي للمؤمن أن يغتر بالفجرة ، بل يكون على حذر منهم ولو قالوا ما قالوا ، خصوصاً أولياء الشيطان الذين تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته ، فإن اللعين حلف (إني لكما لمن الناصحين) .

ومنها أن زخرفة القول قد تخرج الباطل في صورة الحق كما في الحديث « إن من[2] البيان لسحراً » فإن اللعين زخرف قوله بأنواع منها تسمية

---

(١) سورة البقرة : ٣٠ .

(٢) رواه أحمد والبخاري وأبو داود والترمذي .

الشجرة شجرة الخلد ؛ ومنها تأكيد قوله : (إني لكما لمن الناصحين) وغير ذلك مما ذكر في القصة ؛ فينبغي للمؤمن أن يكون من زخرف القول على حذر ، ولا يقنع بظاهره حتى يعجم العـــود .

ومنها أن في القصة شاهداً لما ذكر في الحديث : « إن من العلم(١) جهلا » أي من بعض العلم ما العلم به جهـــل والجهل به هو العلم ، فإن اللعين من أعلم الخلق بأنواع الحيل التي لا يعرفهـــا آدم ، مع أن الله علمه الأسماء كلها فكان ذلك العلم من إبليس هو الجهل ، وفي الحديث : (إن الفاجر خب لئيم(٢) وإن المؤمن غر كريم) وأبلغ من ذلك وأعم منه قول الملائكة : (أتجعل فيهـــا من يفسد فيها) فقيل لهم ما قيل وعوتبوا ، فكانت توبتهم أن قالوا : (سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا)(٣) فكان كما لهم ورجوعهم عن العتب وكمال علمهم أن أقروا على أنفسهم بالجهل إلا ما علمهم سبحانه، ففي هذه القصة شاهد للقاعدة الكبرى في الشريعة المنبه عليها في مواضع منها قوله صلى الله عليه وسلم : (وسكت عن أشياء رحمة لكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها)(٤) .

---

(١) رواه أبو داود عن بريدة ، ويروى (إن من البيان سحراً وإن من العلم جهلا) .

(٢) رواه أبو داود (كتاب الأدب) والترمذي (كتاب البر) ، كما رواه أحمد في مسنده ٣ — ٢٩٤ .

(٣) سورة البقرة ٣٠ — ٣٢ .

(٤) راجع في هذا المعنى : الترمذي (كتاب اللباس) وابن ماجه (كتاب الأطعمة) ، وصحيح البخاري (كتاب الاعتصام) وصحيح مسلم (كتاب الفضائل) ، وراجع تفسير قوله تعالى : (يأيها الذين آمنوا لاتسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم) سورة المائدة : ١٠١ في كتب التفسير الكبيرة .

ومنها أنه لا ينبغي للمؤمن أن يغتر بخوارق العـــادة إذا لم يكن مع صاحبها استقامة على أمر الله ، فإن اللعين أنظره الله تعالى ولم يكن ذلك إلا إهانة له وشقاء له ، وحكمة بالغة يعلمها الحكيم الخبير ، فينبغي للمؤمن أن يميز بين الكرامات وغيرها ، ويعلم أن الكرامة هي لزوم الاستقامة . ومنها أن الأمور التي يحرص عليها أهل الدنيا قد تكون عقوبة ومحنة ، والجاهل يظنها نعمـــة مثل المال والجاه وطول العمر ، فإن الله أعطى اللعين من النظرة ما أعطاه .

ومنها أن يعلم المؤمن أن الذنوب كثيرة ولا نجاة له منها إلا بمعـــونة الله وعفوه ، وأن كثيراً منها قد لا يعلمه من نفسه ، فإن أكثر الكبائر القلبية مثل الرياء والكبر والحسد ؛ وترك التوكل والإخلاص وغير ذلك قد يتلطخ بها الرجل وهو لا يشعر ، ولعله يتورع عن بعض الصغائر الظاهرة ، وهو في غفلة عن هذه العظائم .

ومنها أن يعرف قدر معصية الحسد وكيف آل باللعين حسده إلى أن فعل به ما فعل .

ومنها وهو من أحسنها أن يعرف صحة ما ذكر عن بعض السلف أن من لم يجاهد في سبيل الله ابتلى بالجهاد في سبيل الشيطان ؛ ومن بخل بإنفاقه المال في طاعة الله ابتلى بإنفاقه في المعاصي وفيما لا ينفعه ، ومن لم يمش في طاعة الله خطوات ، مشى في طاعة الشيطان أميالاً وأشباه ذلك ، والدليل من القصة أبلغ من هذا بكثير ، فإن اللعين أبى أن يسجد لزعمه أن ذلك نقص في حقه ، ثم صار بعد ذلك يكدح جهده في القيادة والدياثة وأنواع الرذائل .

ومنها أن في القصة معنى قوله صلى الله عليه وسلم : «كل مولوديولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»(١) إلى آخره . ومن ذلك قوله حكاية عن إبليس : (ولآمرنهم فليغيرن خلق الله) فإنهم ذكروا في معناه أي آمرهم بتغيير خلق الله ، وهي فطرته التي فطر عباده عليها ، وهي الإسلام لله وحده لا شريك له .

ومنها أن فيها معنى القاعدة الكبرى في الشريعة المذكورة في مواضع : منها : قول النبي صلى الله عليه وسلم : « من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد » وهي من قولـــه : (ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام) فإنهم ذكروا أن معناه قطع آذان البحيرة تقرباً إلى الله على عادات الجاهلية .

ومنها أنها تفيد المعنى العظيم المذكور في قوله تعالى : (واعلموا أن الله يحول بين المرء(٢) وقلبه) وما في معناه من النصوص ، وذلك مستفاد من صنع اللعين ؛ فإنه مع علمه بجبروت الله وأليم عذابه ، وأنه لا محيص له عنه ؛ ويعرف من الأمور ما لا يعرفه كثير من أهل العلم ، ومع ذلك لم يتب ولم يرجع ، بل أصر وعاند ، وطلب النظرة لأجل المعصية مع علمه بعقابه وعدم مصلحته من فعله ، وهذا باب عظيم من معرفة الرب وقدرته ، وتقليبه القلوب كيف يشاء ، وتيسيره كل عبد لما خلق له فيفعله باختياره .

ومنها أن الله سبحانه قد يعاقب العبد إذا غضب عليه بعقوبات باطنة في دينه وقلبه لا يعرفها الناس ، مع إمداده إياه في الدنيا كما قال تعالى :

---

(١) رواه الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه وسبق في ص ٩٠ .

(٢) سورة الأنفال : الآية ٢٤ .

(فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم(١) إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه) كما فعل إبليس .

ومنها أن فيها شهادة لما ذكر عن بعض السلف أن من عقوبة السيئة السيئة بعدها . ومنها أنها تفيد القاعدة المعروفة أن الجزاء من جنس العمل ، وذلك أنه قصد الترفع فقيل له : (اخرج إنك من الصاغرين) فقصد العز فأذله الله بأنواع من الذل .

ومنها الشهادة لصحة الكلام المذكور عن بعض السلف في قوله : والله إن معالجة التقي التقوى أهون من معالجة غير التقي الناس ، وقول من قال : مصانعة وجه واحد أهون من مصانعة ألف وجه ، وبيان ذلك أن اللعين لمّا تخيل أن عليه من أمر الله شيئاً من النقص ، فلو قدم طاعة الله وآثرها على هواه وسجد لآدم ، فلو قدر أن ما تخيله صحيح وأن ذلك غضاضة عليه ، لكان في جنب ما أتاه من الشر والهوان والصغار جزءاً يسيراً فالله المستعان ، فكيف ولو فعل ذلك لكان فيه شرفه وسعادته ، كما هو عادة الله في خلقه أن من تواضع لله رفعه .

ومنها أن الفاجر قد يعطيه الله سبحانه كثيراً من القوى والإدراكات في العلوم والأعمال حتى في صحة الفراسة ، كما ذكر عن اللعين حين تفرس فيهم أنه يغويهم إلا المخلصين فصدّق الله فراسته في قوله : (ولقد صدّق عليهم إبليس(٢) ظنه فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين) فإن قيل في الحديث :

---

(١) سورة التوبة : الآية ٧٧ .

(٢) سورة سبأ : الآية ٢٠ .

« اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله » (١) فلا يناقض ما ذكرناه ، بل يدل على أن المؤمن أتم في هذه الخصلة من غيره وأصدق ، كما كان في العلم والإيمان والأعمال والحلم والصبر وغير ذلك ، ولو كان للفجار شيء من ذلك.

ومنها الشهادة للقاعدة المعروفة في الشريعة أن كل عمل لا يقصد به وجه الله فهـــو باطل ، لاستثنائه المخلصين .

ومنها الشهادة للقاعدة الثانية وهي أن كل عمل على غير اتباع الرسول غير مقبول ، لقوله في القصة : (اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينكم مني(٢) هدى) الآية فقسم الناس إلى قسمين : إلى أهل الجنة ، وهم الذين اتبعوا الهدى المنزل من الله ، وأهل الشقاق والضلال ، وهم من أعرض عنه فانتظمت هذه القصة لهاتين الآيتين العظيمتين اللتين هما أكبر قواعد الشريعة على الإطلاق ، القاعدة الأولى فيها حديث عمر « إنما الأعمال بالنيات »(٣) والقاعدة الثانية حديث عائشة « من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد »(٤) .

---

(١) رواه الطبراني والترمذي من حديث أبي أمامة ، وأخرجه الترمذي أيضاً من حديث أبي سعيد .

وراجع تقريراً موسعاً عن تخريجه في (كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس) للمفسر المحدّث الشيخ إسماعيل ابن محمد العجلوني (ت١١٦٢ هـ) جـ ١ ص ٤٠ — ٤١ .

(٢) سورة البقرة : الآية ٣٨ .

(٣) الحديث متفق عليه عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ورواه ابن حبان بدون (إنما) ، ولم تصح روايته إلا عن عمر ، لكنه اشتهر بعد ذلك ، وقد سبق تخريجه في ص ٤٤ .

(٤) سبق تخريجه في ص ٤٤ .

وقال أيضاً : وقوله عز وجل : (وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لاتعلمون) إلى قوله : (ويحسبون أنهم(١) مهتدون) هذه الآية ذكرها الله سبحانه بعدما رد على الكفار عبادات يتقربون بها إليه ولم يشرعها ، منها أنهم إذا حجوا طافوا بالبيت عراة يقولون : الثياب التي عصينا الله فيها لا نطوف فيها ، فقال الله رداً عليهم : (وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشـــاء أتقولون على الله ما لا تعلمون) .

والفاحشة في هذا الموضع إخراج العورة للعبادة ، مثل ما يفعل كثير من الناس يكشف عورته للاستنجاء وغيره ينظرة ، يريد بالاستنجاء في هذه الحالة التقرب إلى الله ، فلما رد عليهم الباطل أخبرهم بالحق الذي شرعه فقال : (قل أمر ربي بالقسط) وهو العدل (وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد) وهو إقامة الصلاة بحقوقها (وادعوه مخلصين له الدين) يقول : ادعوه بهذا الشرط (لا تدعوا مع(٢) الله أحداً) يقول الأمور التي تعبدونني بها لم آمركم بها ، والأمور التي أمرتكم بها لا تفعلونها ؛ فالظلم والبغي

---

(١) قوله تعالى : (وإذا فعلوا فاحشة قالوا : وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل : إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون ؟ قل أمر ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين كما بدأكم تعودون . فريقاً هدى وفريقاً حقّ عليهم الضلالة إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون) سورة الأعراف : الآيات : ٢٨ — ٣٠ .

(٢) قوله تعالى : (وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً) سورة الجن : الآية ١٨ .

ضد القسط وهو جاهكم وسمتكم الذي تبذلون فيه الأعمارو الأموال،وإقامة الوجه عند كل مسجد لا تفعلونها ؛ إن فعلتم صليتم صلاة لا تجزيء والإخلاص منكر عندكم ، ودينكم الذي ترجون به الثواب هو الشرك .

إذا فهمت هذا فتأمل أحوال من تعرف ونزّل هذه الآية على أحوالهم ترى العجب . ثم قال : (كما بدأكم تعودون) أي لا بد أن يخلقكم للبعث كما بدأ خلقكم من نطفة . ثم قال : (فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة) فهذا القدر يهدي من يشاء ويضل من يشاء ، فجمع في هذه الآية الإيمان بالله والإيمان باليوم الآخر ، والإيمان بالشرع والإيمان بالقدر ؛ وذكر فيها تفصيل الشرع الذي أمر به ، وذكر حال من عكس الأمر فجعل المنكر معروفاً والمعروف منكراً ؛ ثم ختم الآية بهذه المسألة العظيمة ، وهي(أنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون) ، فلا أجهل ممن هرب عن طاعة الله واختار طاعة الشيطان ، ومع هذا يحسب أنه مهتد مع هذا الضلال الذي لا ضلال فوقه والله أعلم .